

اسبانيا قبل الفتح الإسلامى

اسبانيا تكاد أن تكون هي والبرتغال جزيرة فى جنوب أوروبا الغربى والعرب يسمونها جزيرة الاندلس، فى شمالها الشرقى فرنسا مفصولة عنها بسلسلة من جبال البرانس PYRENES أو جبال البرت أو البرتات أو جبال الأبواب^(١) وفى جنوبها مراكش يفصلها عنها مجاز جبل طارق وفى غربها البحر المحيط وفى شرقها البحر الرومى أو بحر سفيد المعروف بالبحر المتوسط.

أوائل سكانها قوم يعرفون بالايبريين IBERES ولذا كان يطلق عليها اسم ايبريا IBERIE وقيل: إن هذا الاسم مأخوذ من اسم نهر فيها كان يسمى ايبر IBER وهو ابره EBRE الآن.

ثم اهتدى إليها تجار الفينيقيين قبل المسيح بعدة قرون^(٢) حين ملاحظتهم على

(١) فى دائرة المعارف «البرانس جبال تفصل فرنسا عن اسبانيا» وفى الجزء الأول من نفح الطيب ص ٦٦ المطبوع فى المطبعة الميرية «فى الحاجز الذى يفصل بين الاندلس والأرض الكبيرة جبل البرت وفيه الأبواب التى فتحها ملك اليونانيين بالحديد والنار والخل ولم يكن للاندلس من الأرض الكبيرة قبل ذلك طريق فى البر» وفيه ص ٦٧ «بين البحر المحيط والبحر المتوسط البر الذى يعرف بالأبواب وهو المدخل إلى بلاد الاندلس من الأرض الكبيرة ومسافته بين البحرين مسير يومين» اهـ.

ولفظه (برت) أفرنجية معناها الباب عربت وجمعت على (برتات) جاء فى نزهة المشتاق فى الجزء الأول من الإقليم الخامس «يسد ما بين البحر المظلم وهو بحر الانقليشين وبحر الشام جبل عظيم يمتد من مدينة بيونة إلى أرض برشلونة يسمى جبل البرتات ويحجز بين بلاد الاندلس وبلاد الافرنجيين وطول هذا الجبل من الشمال إلى الجنوب مع سير تقويس سبعة أيام وفيه أربعة أبواب احدها فى ناحية برشلونه ويسمى برت جاقه وثانيها يسمى اشمرة وثالثها برت شازرو ورابعها برت بيونة ويتصل بكل برت منها مدينة فى الجهتين فما يلى برت شازرو مدينة بنبلونة» وقد وهم من سعى هذه الجبال بالبرن أو البرنات بالنون بعد الراء وأما لفظ «برانس» فيقرب من اللفظ الأسبانى.

(٢) قبل خمسة عشر قرنا وقبل اثنا عشر وقبل عشرة قرون وقبل سبعة.

شواطئ أفريقية ووصولهم إلى المجاز الفاصل بين القارتين فدخلوها وراقهم جمال أقليمها وشاهدوا خصب أرضها وغنى معادنها فكانوا يترددون إليها ويقدمون للابيريين عروض تجارتهم قليلة القيمة ولكنها جميلة الصنع كأوان زجاجية وأقمشة منقوشة وملابس موشاة وحلى للنساء ويبيعونها بمعادن الذهب والفضة والحجارة الكريمة والانبذة والاصواف أى بأنفس ثمرات البلاد، ولهذا الغرض اقاموا فى أرضها مدائن ذات أسواق تجارية وأنشأوا على شواطئها نزلات بحرية كنزلة قادس CADIX وكانوا يعيشون مع قبائلها على صفاء ووداد لا سيما من لهم شأن فى توسيع تجارتهم.

وقد سرت فى أهل ايبيريا حضارة الفنيقيين وفنونهم ولغتهم وأخلاقهم وكذا عبادة معبودهم هرقل ولذا كان يطلق على جبل طارق وجبل سبتة عمودا هرقل LES DEUX COLONNES D'HERCULE وكان القدماء يعتبرون أنهما الحد الغربى للأرض بأسرها.

ومن عصرهم غلب إطلاق اسم (اسبانيا) على (ايبيريا).

قال رومى المؤرخ ما تعريبه بتصرف:

«تضاربت الأقوال فى اشتقاق هذا الاسم والذي يغلب على الظن منها أنه مأخوذ من لفظة (اسبان SPAN) الفنيقى ومعناه المحتجب أو المستور فإن هذه البلاد كانت بعيدة عن الفنيقيين ومحتجبة عن انظارهم فى نهاية الأرض جهة الغرب وقيل سموها بذلك لأنهم رأوا فيها الأرناب كثيرة والأرناب بلغتهم (اسبان) أيضا واختار الرومان ذلك فإن وسام (أدريان ADRIEN) الامبراطور الرومانى (من سنة ١١٧م إلى سنة ١٣٨م) صورت فيه اسبانيا بصورة امرأة بجانيها أرناب واليونان سموها (هسبيريا HESPERIA) أى بلاد الغرب بالنسبة إلى بلادهم فإن لفظ (هسبيريا HESPERIA) معناه باليونانية المساء أو الغرب».

وقال فى موضع آخر: «كانت حكومة الفنيقيين فى اسبانيا جمهورية ومستعمرة

قادس الزاهرة حاضرتهم لكنها لم تكن كرسى حكومة مركزية لها سلطة مطلقة على المستعمرات الأخرى البحرية بل كان يربط بعضها ببعض الاتحاد فى الأصل والاشتراك فى المنافع وكانوا من بين الأمم السالفة يرجعون فى منازعاتهم إلى المناقشات التى تؤدى بهم إلى مصالحات عادلة دون استعمال السلاح ولم ينزعوا قط إلى الحكم الملكى على سكان اسبانيا.

لم تدم للفنيقيين الأثرة بالتجارة مع قبائل اسبانيا بل زاحمهم فيها اليونان^(١) فتركوا لهم الشاطئ الشرقى منها.

وفى القرن الخامس قبل الميلاد جاء القرطاجيون^(٢) واحتلوا نزلات الفينيقيين وأنشأوا نزلات جديدة منها برشلونه وقرطاجنة^(٣) CARTAGENE BARCELONE. ثم حكمتها الرومان سنة ١٣٤ ق م وبقيت تحت حكمهم إلى سنة ٤٠٦ بعد الميلاد حيث أغار على رومة ثم اسبانيا قبائل مختلفة بربرية جاءت من شمال أوروبا منهم السواف أو السوافيون SUEVES والفندال أو الفندال VAN- DALES.

ثم أدرك السوافيين والفندال القوط (أو الغوط أو الغوثيون) GOTHES ويقال لقوط اسبانيا الـويزيقوط VISIGOTHES أى قوط الغرب فدفعوا السواف إلى الشمال والفندال إلى الجنوب فأخذ من اسمهم اسم فنداليسيا VANDALICIA للجهة التى احتلوها فحرفه الاسبانيون إلى اندالوشيا وعرب العرب بالاندلس ثم دفعوهم إلى أفريقيا وأسس القوط فى أسبانيا دولة عظيمة قاعدتها طليطله TO- LEDE ووضعوا لها نظمات وقوانين جديدة وأجابوا الدعوة إلى النصرانية سنة ٥٨١ م.

هذا والحروب الأهلية بين امرائها مهدت السبيل إلى استيلاء المسلمين عليها

(١) المراد يونان آسيا لا يونان أوروبا فإن هؤلاء لم يكن لهم مستعمرات فى اسبانيا.

(٢) نسبة إلى قرطاجنة وهى مدينة فى شمال أفريقيا أسسها الفينيقيون فى القرن السابع قبل الميلاد.

(٣) فى شرق اسبانيا على البحر الأبيض المتوسط ومعناها قرطاجنة الجديدة.

فى القرن الثامن للميلاد سنة ٩٢ للهجرة وكان آخر ملك من ملوكهم يسمى ردرىك ومؤرخو العرب يسمونه رذرىق أو لذرىق، قتل فى واقعة شرىش XERÉS سنة ٧١١م وبعد هذه الواقعة التجأت شردمة من القوط تحت قيادة الامىر بلاى PELAGE إلى ولاية استوريا ASTURIE نحو الشمال وتحصنت هناك من غارات العرب عليهم، قال ابن خلدون: «كان هذا القطر الاندلسى من العدو الشمالية من عدوتى البحر الرومى وبالجانب الغربى منها يسمى عند العجم (غير العرب) الاندلووش وتسكنه أمم من افرنجة المغرب أشدهم وأكبرهم الجلالقة وكان القوط قد تملكوه وغلبوا على أهله لمثىن من السنىن قبل الإسلام بعد حروب كانت لهم مع اللطىنيين حاصروا فيها رومة ثم عقدوا معهم السلم على أن ىنصرف القوط إلى الاندلس فصاروا إليها وملكوها ولما أخذ الروم واللطىنيون بملة النصرانية حملوا من وراءهم بالمغرب من أمم الفرنجة والقوط عليها فدانوا بها وكان ملوك القوط ىنزلون طُلَيْطَلَّةَ وربما تنقلوا ما بينها وبين قرطبة واشىيلية ومارده وأقاموا كذلك من نحو أربعمائة سنة إلى أن جاء الله بالإسلام والفتح وكان ملكهم لذلك العهد يسمى لذرىق وهو سمة لملوكهم كما أن جرجىر سمة لملوك صقلية». اهـ.

بمقارنة عبارة ابن خلدون هذه بما سبق يؤخذ أن المراد بالجلالقة الأقوام التى كانت تسكن شمال اسبانيا وأن اللطىنيين هم الرومان وأن الروم هم اليونان وقوله: إن لذرىق سمة لملوكهم وهم فإنه علم شخص على آخر ملوكهم.